استدعاءات ذهنية قصيرة (٢)

رحلة وسمر

من عدن إلى أحور

بقلم

أبي بكر العدني ابن علي المشهور

بسم الله الرحمن الرحيم

دوي شديد في رأسي.. إنه يكاد أن ينفجر.. يكاد أن ينفجر حقاً..

وضعت رأسي على طاولة خشبية صغيرة.. طاولة يجلس عليها الناس بجوار هذا الدكان الذي لا زال مغلقاً في مثل هذا الوقت.. عبثاً كنت أريد أن أنام.. الساعة الثالثة بعد منتصف الليل.. يغمر المكان ظلام دامس.. بين الحين والآخر أشاهد مصباح جندي الخشبة يصطدم بالحجارة وبالصناديق الخشبية المنتشرة على جانبي الطريق المسفلت.. وقد يرفعه ليتطلع به إلى أبواب الحوانيت المغلقة.

الريح تلعب بالأوراق تحتي.. وأضأت مصباحي الصغير لأتطلع تحتي.. إ ا قطة تبحث عن شيء بين الأوراق..

رائحة السمك المتعفن تنتشر في هذه الساحة.. أف.. ما لهذا الحظ التعس.. كل المقاهي أغلقت أبوا ا.. منذ وقت

بعيد.. لم تكن « شقرة » تعتاد هذه الرقدة المزعجة.. هكذا كنت أعتقد.

ضحك الجندي.. وتفحص دراجتي النارية.. ودار عليها مرتين موجهاً إليها ضوء المصباح اليدوي وقال :

-تنطفئ الكهرباء هنا الساعة الحادية عشرة.. وتموت الحركة في رمضان بعد الواحدة.. لذلك لن ترى أحداً في السوق.

غريبة!.. رمضان شهر كان يجب أن يسهر فيه أصحاب السوق.. فحركة السيارات في شهر رمضان ستكون دائمة ؛ التفت الجندي إلي وقال :

- في استطاعتك أن تنام في أي مكان.. الأكل لا يوجد في مثل هذه الساعة شيء هنا.

أدرت محرك الدراجة وصعدت على كثيب رملي بجانب

مخفر الشرطة.. وأطفأت نور المحرك.. وأسندت الدراجة.. وأخرجت مصباحي أبحث في بضاعتي عن سحور.. معي ترمس ملأ ا قهوة بنية وفطيرتين.. كنت متوقعاً – قبل خروجي من عدن – أن يأتي وقت السحور وأنا في مكان ما أبعد من هذه القرية.. فتزودت زادي..

فرشت منديلي.. وجلست ألتهم سحوري المتواضع على ضوء المصباح اليدوي. ناديت الشرطي ليشاركني السحور.. شكرني واعتذر.. وأدار ظهره إلى الجهة الأخرى.

أف.. ما هذا الظلام الحالك؟.. لقد كنت أعهد هذه القرية الصغيرة مشعة بالأضواء ومزدحمة بالحركة.. إ ا منطقة استراتيجية حقاً متوسطة الموقع.. ومنفذ المواصلات البرية بين عدن والمحافظات أبين.. شبوة.. حضرموت.. سيحوت ...

أتراها أزمة الكهرباء انتشرت من المدينة إلى الريف؟.. لقد

بتنا ليالٍ طويلة في عدن نشكو الظلام وننتظر الصباح لنرى!..

شيء عجيب أن تكون مدينة – في أوج صخبها العصري – حديثاً عن الدقة.. والتخطيط.. والبرامج.. والوعي.. والمسؤولية.. تفاجأ يوماً بأن أهم خدما ا تفتقر إلى كثير من الحقائق في جو المغالطات والمزايدات.

-هل يوجد مكان أشرب منه ؟

تنحنح الجندي ووجه مصباحه إلى مكان مسقوف.. وقال لي :

- انظر هناك.. يوجد زير به ماء.. بإمكانك أن تشرب منه.

غرفت منه بإناء مربوط في جانبه فوجدته ملح أجاج.. ولكن لا بأس منه الآن.. فهو خير من لا شيء في هذه الرحلة.. ورأيت مقعداً صغيراً يمكن الاستلقاء عليه بجوار الماء فعدت لأركب دراجتي وأدخلتها إلى ذلك المكان الدافئ وتوضأت.. وصليت لله ركعتين.. ثم أخذت مضجعي..

المسلسل الجميل.. لم يكن بودي تركه.. وضاح اليمن هو من أحسن ما تبثه برامج تلفزيون صنعاء.

كل شيء جاهز.. الأوراق.. الشنط.. القهوة.. هناك على الطاولة شيء من طعام الإفطار.. أكلت بنهم.. وارتديت ملابس السفر.. ملابس خاصة لرحلة طويلة.. وألقيت الخوذة الصفراء على رأسي.

مشكلة.. لا توجد لدي نظارة.. والطريق طويل.. والسيارات المارة حولي مسرعة تخلف وراءها سيلا من الغبار والرمل سيكون لي منه نصيب غير قليل.. فلأحافظ على بصري.

وداعاً يا أخ « علوي ».. أغلق الباب جيداً.. وهرعت إلى الدرج الحجري ونسيم الخليج يتغلغل إلى عمق النفس.. نظرة

أخيرة على هذا الجمال الممتد مد البصر حتى مدينة البريقة.. سكون في حركة.. وحركة في سكون.. ورموز صنمية في مجال الرؤية منذ التكوين تعبدها الشخوص والقوارب والأمواج.. تنفح منها رائحة البقاء والبغاء.. وما أنتن راحة بغاء في خليج معشوق لعناترة التاريخ البشري المتعاقب.. آثار الخطيئة واضحة بينة لم تحجبها أستار الظلام المتكرر.. ولن تغسلها مياه الخضم الهادر.

هذه الدراجة النارية قابعة تحت الجبل في انتظار المغامرة الجديدة.. صو ا ينعش النفس المأسورة خلف قضبان العادة.. نستنشق رائحة الانفلات ضمن الهدير المنطلق.. في هذه الساعة قد لاتكون في الأسواق حوانيت مفتوحة.. الساعة الواحدة والنصف ليلاً..

شارع المعلا لا زال فيه بعض الأبواب تسمح بنفاذ الضوء قبل إغلاقها تماماً.. هاهو دكان مفتوح.. وهذا آخر.. وبين

كل وقفة وأخرى تبين انعدام المطلوب فيه.. لا نظارة ولا بطارية.. لابد من التعريج على مدينة كريتر.. صعدت العقبة الشامخة.. وأشفق على دراجتي من صعودها.. فهي ستقطع رحلة تقدر بـ ١٧٥ ميلاً تقريباً.. كنا نراها قطعة من العذاب قبل أن تمهد الطريق.. كنا حينها نقطع الرحلة في أكثر من ١٢ ساعة على متن سيارات الأجرة أو سيارات النقل للبضائع.. ننام أثناء الطريق.. ونحسب للمشاق حساباً كبيراً.. هناك مواقع رملية رخوة صعبة التجاوز.. تأخذ من وقت الرحلة ربعها أو ثلثها في بعض الأحايين.. وقد يسوء الحظ لبعض المسافرين فتطول المعاناة إلى ضعف الرحلة كلها.. والحل الأنسب في كثير من الحالات انتظار البحر حتى يأتي موعد جزره.. وتمر الدقائق والساعات ثقيلة بين جيئة وذهاب الأمواج وتكسرها.

شيء جميل.. هنا في « كريتر » توجد دكاكين كثيرة

مفتوحة الأبواب.. نشاط ملحوظ.. وحركة دائبة.. لعل الفوهة البركانية غيرت مجرى نشاطها إلى القلوب.

واخترت دكاناً يبدو أن فيه مطلبي.. ودخلت.. نعم.. يوجد لدينا مصباح.. ولا توجد نظارة.. وهناك في الجانب الآخر ستجد البطاريات.

ونقدت البائع قيمة المصباح.. واستدرت لأخرج.. وإذا رجل يحمل في يده حزمة.. أو رزمة من النظارات.. نعم.. هذا ما ينبغي..

-بكم النظارة ؟

-بخمسين درهماً..

-يا أخي.. ليس لي ا رغبة استخدام.. أنا مسافر على دراجة نارية ثم سأرميها..

-خذها إذن.. هذا موقع نفعها بالتأكيد.. بخمسين

درهماً..

ووضعت النظارة على عيني فلم ترق لي رؤية ولا حجماً.. فأردت أن أعيدها للبائع رغبة في البحث عن غيرها فقال :

-خذ النظارة ستنفعك.. لن تجد من يبيع لك في مثل هذا الوقت بمثل هذه القيمة..

فأخذ ا.. ولولا أن في عيني اليسرى بعض الألم لما تجشمت شراء نظارة كهذه.. فزجاجها سميك يعتم الرؤية ويكثفها.. لا أشاهد من خلالها الطريق واضحاً.. ولكنها تخفف عني آثار الغبار.. وتمنع عن العين ذرات الرمل الساحلية المملة.. هذا مفرق الطريق يبدو غير واضح.. لابد من تخفيف السرعة.. ودلفت عبر المفرق الرئيسي الذي يفصل بين الطريق المؤدي إلى الشيخ عثمان ويوصلني بالخط الساحلي المؤدي إلى ((العلَم)).. وصارت الطريق أكثر إعتاماً.. والظلمة تستبد على المحيط حولي كلما أوغلت بعداً عن المدينة.

هاهي ذي سيارة.. أليس كذلك؟.. أضواءها خافتة.. سيارة ذاهبة على ذات الطريق ولا شك لو كانت قادمة نحوي لكان ضوؤها ساطعاً كغيرها من السيارات التي مررت ا.. لا.. إ ا حقاً سيارة ذاهبة لقد استطعت اللحاق ا.. هل أتجاوزها؟.. لابأس من التجاوز .

لا.. لا.. ما هذا؟.. إ ا ليست سيارة.. هذه أضواء كثيرة متداخلة.. غير معقول!.. ما هذا؟.. يا للهول!.. مركز الشرطة في العلم!..

سحقاً لك من نظارة.. لقد كنت من خلالها أراقب أضواء المركز وكأ ا أضواء خلفية لسيارة مسرعة.. كنت أعد العدة لتجاوزها.. لولا أني أبعد ا في اللحظة المناسبة.

-تفضل..

هكذا أشار لي الشرطي الصغير.. عبرت القاطع ودلفت إلى

الاستمرارية.. أنا لا أدري لماذا كثرت ظاهرة الصغار في العمل الشرطوي.. في كل مكان ينتشر صغار الشرطة.. أشفقت عليهم رغم ملابسهم الرسمية.. إ م في حالات كثيرة لا يتجاوزون الرابعة عشرة من العمر.

لماذا لا يواصلون التعليم ؟ كيف قبلت الدولة هذا القطاع العريض من أبناء البدو للعمل الشرطوي؟ ألا يوجد كبار أم أن الكبار انقرضوا ؟ لا أعتقد.. ربما لأن الكبار عموماً أصعب انقياداً للأوامر.. قلت: ربما.. ولا أدري ما تبرير ذلك.. كل مباني السلك الغربي والأجنبي أو غالبها يحرسها شبيبة صغار.. يحملون بنادق طويلة.. يلاحظ طولها في أيديهم.. إ م لا يحسنون حملها فضلاً عن استخدامها.

ربما كان هذا دليلاً على انتشار الأمن واستتابه.. فليس من حاجة إلى رجال أشداء.. فالجريمة قد اختفت.. أو قل: أهل

الجرائم يشرعون.. ولذلك فبالإمكان تجنيد أمثال هؤلاء ليمثلوا دور رجل الأمن فقط.

تزعجني هذه السيارات المسرعة.. إ ا سرعة تـنـزع الفؤاد عن موقعه.. أنا أركب دراجتي وأطوي ا طريق العودة إلى أعماق الريف.. إلى البساطة والسذاجة ؛ لكن هؤلاء يشتاقون إلى المدينة.. نعم يشتاقون إليها ويستاقون فينطلقون بسرعة الريح العاصفة.. ولا يهمه آثار غبارها..

إ م يمارسون ضدي تصرفات سيئة في مستوى شرعي وواقعي.. لماذا يتركون المصابيح مضاءة بالإشعاع المركز القوي؟ كان ينبغي أن يستجيبوا لإشاراتي الضوئية فيخفضوا الإضاءة إلى أدنى منها.. إ م لا يريدون.. إنني أُضطر في بعض الحالات إلى التريث في المسير والخروج عن مستوى الطريق.. ويدي على وجهي من زوبعة الغبار الممتزج بالرمل..

أهكذا يفعل الإنسان بمثله عندما يمتلك أسباب القوة

والجبروت ؟.. إنه بدو ا أقل أثراً وتأثيراً.. تشعرهم المركبات المتحركة بالقوة.. بطي مسافة الزمن.. بالقرب من الغاية.. فلا غرو إذا أجبروا ضعيف الآلة منعدم الوسيلة المماثلة أن يقف مغموراً بآثار الانطلاق مفجوعاً بصدى القوة المركبة يبحث له عن موقع أمان ريثما يبتلع الطريق المنطلقين إلى الغايات.. هناك في الطريق رجال مؤدبون.. هكذا كان حكمي على ظاهر السلوك.. إ م يخفتون الأضواء.. يشيرون للغير بمصابيحهم.. يخففون السرعة إذا صارت المسافات متقاربة.. وقد يقوم أحدهم بالتزمير على بوق سيارته معبراً عن التحية الآلية..

مزمار دراجتي عطب منذ مدة . فلربما اعتقد صاحب السيارة أنني متكبر لا أرد التحية بمثلها.. إن مثل هذه التحية الآلية لا يوجد مفهوم ((أحسن منها)).. قد يطلق السائق حبل

أفكاره كما أطلقها.. فيظن بي الظنون.. أليس بعض الظن إثم ؟ بلى.. إن بعضه إثم وبعضه مشروع..

لو ظن أني متكبر ألا ينظر إلى الوسيلة التي أمتطيها ؟ فهي لا تبعث على الزهو مقارنة بوسيلته!.. لعل الكبر لا علاقة لها بالوسائل.. الكبر مرض ذاتي يصيب الإنسان على أي حال كان.. وما الوسائل إلا مجاهر تضعيف للعلة.. وتجسيم لها..

على كل حال.. الطريق أمامي خالٍ.. والظلام دامس.. ودائرة الضوء التي أنطلق من خلالها تغطي مساحة قصيرة في محيط الظلام.. يا ترى ماذا يحويه هذا الفراغ ؟ مسافات ومسافات.. لا يسكنها أحد.. يخيم عليها السكون الناطق..

ثعلب ؟! نعم إنه بريق عين ثعلبية !.. كأنه أراد أن يجيب عن سؤالي.. فليس هنا فراغ ولا سكون.. إن هنا حياة وحركة وغريزة ورغبات ودوافع وعوالم.. هنا ثعالب..

وفئران.. وأرانب.. وسحالي.. وربما ذئاب وضباع.. من يدري ؟.. الظلام يحوي كل شيء !.. والوهم أكبر من دائرة الظلام.. ((الثعلب خير بشير في السفر)).. هكذا كان والدي يخبرنا عندما نشاهد ثعلباً في طريقنا..

لا شك أن هذا الثعلب الصغير تعمد الوقوف على الطريق لغرض ما.. ربما ليدخل دائرة الضوء.. من يدري لعله يريد أن يدخل باب الشهرة في عالمه من هاهنا.. أليس الوقوف في دائرة ضوء متغيرة تحد خطير ومدمر ؟.. ألا يشعر بمن يحركها.. بمن يدفعها؟..

أتراه وقف هنا يستطلع الخبر عن القادم المتحرك ؟.. أيظن الدائرة الضوئية خيطاً يوصله إلى الإشباع ؟.. أم هي غريزة التحديث؟.. يكسر رتابة العادة.. يخترق المألوف لحيظات من المتعة المفاجئة.. تلطف جو المغامرة الليلية.. لكن الثعلب كعادته ينسحب قبل أن تحدد فيه رأيا.. يتوارى بين

موجودات الواقع.. تاركاً خيال ذيله الكثيف يكنس عن الذهن استدعاءات جديدة..

يداعب النعاس عيناي.. لست أدري كيف هجم على جفوني.. لابد أن أطرده كرهاً أو طوعاً.. فالطريق في هذا الوقت من الفجر غير مأمون.. سيارات الأجرة.. والبضائع.. والأمن.. والسكارى.. والمغامرون.. كلها تتشابه في إخراج ا روح إلى العالم الآخر..

على مثل هذا الطريق هناك أناس فقدوا حيا م نتيجة سبا م خلال مسؤوليات القيادة.. وأناس فاجأهم الفناء بسبات غيرهم وسبا م.. والسكوت في عالم الفراغ الصامت.. يجلب الاقتراب من الخطر.. إن لم تحقق مفاجآته المحضور.

إذن لابد أن أغني.. أنشد.. أفكر بشيء ما.. لابد أن أفعل شيئا.. ونمت من جديد.. ولم أنتبه إلا ومقود الدراجة يكاد أن

يفلت من يدي.. والعجلات قد هوت عن الطريق الرئيس إلى حافة الوادي.. وسيارة ملأت الجو غباراً ورملاً وهديراً.. واستعدت السيطرة على القيادة.. وكتب اللّه لي عمراً جديداً.. لقد نمت حقاً.. هناك فاصل رقيق بين اليقظة والمنام..

عندما أكون يقظاً.. أسمع صوت الدراجة وهفيف الرياح يمتزجان في لحن كوني مخنوق.. وإذا ما نعست يتلاشى اللحن في صمت الحس وإطباق الجفن.. ويعود الصوت المخنوق على أشده مفجعاً عندما أستيقظ من جديد.. واعتدت على هذا القانون الطائر.. حتى فوجئت بالخطر الداهم.. فذهبت أقيس لذاتي وضعاً جديداً.

أما لهذا الطريق من آخِر؟.. كم من الوقت مشيت؟.. لقد كنت أفضل البقاء في مدينة زنجبار ولو لبعض الوقت.. ولكني لم أطمئن.. فهذه المدينة لا تروق لقلبي منذ صباي.. لقد مررت ا مروراً لا يذكرني بشيء يستحق الاستدعاء.. غير

محطة البـ ين.. إ ا في نظري.. مدينة مشؤومة.. لا أستقر فيها ولا أرتاح.. لعلها مسألة باطنية.. قضية روحية..

كنت يوماً في طريقي إليها بعد نجاحي في امتحانات الثانوية العامة.. أحمل أوراقي.. مسروراً بالقرار الجديد وتعديل الدرجة والمرتب.. وشيء من الزهو يساورني.. ولم أذكر بعدها شيئاً.. إلا أن رأسي اصطدم بأرضية السيارة وفقدت الوعي.. وكنت في أول من استعاد الوعي والإحساس.. وكله أمر غريب..

وجدت نفسي مرميا على كثيب من الرمل على جانب الطريق.. بجانبي راكب يتوجع وأصوات وصيحات أسمعها تتداخل من أماكن وجهات متعددة.. وفتحت عيني واعياً فلم أجد الأوراق.. ولا الساعة.. ولا النظارة.. ورأيت السيارة مهشمة محطمة ومقلوبة على رأسها.. قمت بسرعة أنفض التراب عن ثيابي.. ووقعت عيناي على الأوراق تطير ا الرياح وسيارة نقل كبيرة قد وقفت قريباً منا ونزل ركا ا يتسارعون

لنجدتنا.. وامتدت يدي إلى راكب يطلب من يسنده ليقوم.. وساندته حتى جلس يتأوه ويتفحص أجزاء جسده.. واختلط الحابل بالنابل.. ووصلت سيارة أمن من مركز عسكري قريب.. ودخلنا مدينة زنجبار ونحن في حالة يرثى لها.. أعوذ بالله..

لا حاجة لي الآن في مثل هذا الوقت من الفجر أن أستذكر شؤماً أصابني من هذه المدينة.. لقد انطلقت خارج الحزام الأخضر أستنشق النسيم الرطب.. وأفتح قميصي كي تتشبع مسام جسدي من هذا الهواء الفجري العليل.. إ ا الطريق إلى ((شقرا)).. ونحن نسميها ((شقرة)).. وكل الناس هكذا يسمو ا.. لعله اسم امرأة.. أو وصفها.. ولكن الفارق بين الوصف والحقيقة واضح.

استيقظت شقرة..

هاهي مكبرات الصوت ترتل القرآن الكريم قبل أذان الفجر.. لا بد من الوضوء أولاً قبل الانطلاق.. أدرت محرك الدراجة وتركتها لتنال قسطاً من الحرارة اللازمة ريثما أتوضأ وأصلي.. ركبت دراجتي.. وسرت نحو المخفر بطيئاً.. وأشار الجندي بمصباحه اليدوي نحوي لأخرج.. إنه ليس ذلك الجندي الأول.. ما أسرع موجبات التغير والتبدل في هذه المراتب.. إ م يسمونه « نظام ».. كل ينال جزءاً من المسئولية ثم تعقبها راحة اختيارية.. ليت هذا المبدأ يطبق من القمة حتى القاعدة.

ودعت الجندي القائم بجوار الخشبة واستقبلني في الطريق المرصوف هبوب نسيم لطيف منعش.. والدراجة تنهب المسافة بأً وكأ ا أكثر اشتياقاً إلى حيث أريد.. استدرت نحو الشرق قليلاً وخلفت المفرق المؤدي إلى عقبة العرقوب عن يساري.

لا زال الظلام مخيماً على الصحراء نسبياً.. ولا يبين للعين

شيئاً واضحاً غير ما تقع عليه الدائرة الضوئية من كشاف الدراجة.. الطريق هنا أكثر سهولة وسيولة من تلك الطرق التي كنت ا قبل وصولي إلى شقرة.. إن هذه الطريق حديثة عهد.. جديدة البناء.. لاتجاوز حداثتها العامين.. يقولون: أن لكل جديد لذة . واللذة متعة الجوارح واطمئنان القلب.

إ ا طريق متساوية لا يوجد ا انخفاض مفاجئ ولا حجر نابئ.. طريق يبعث في النفس الارتياح كأني أشاهد شبحاً لإنسان يقف على مد الرؤية.. نعم.. رأيت رجلاً.. لا.. رجلين.. يشيران إلي بالوقوف.. خففت السرعة قليلاً قليلاً حتى صرت محاذياً لهما قال أحدهما لصاحبه :

- إنه سيكل.. سيكل.. العفو منك.. مع السلامة.

لا شك أ م كانوا يعتقدونه ضوء سيارة فاستوقفوها للركوب.. سألتهم عن اسم الموقع الذي نحن فيه قالوا : « بير

مسل)).. بير مسل موقع معروف ومحبوب.. كنا فيما مضى نقف بجواره.. نملأ الأوعية.. ونشرب.. ونتوضأ.. بئر ماء عذبة.. أين العريش الذي كنا نجلس فيه لتناول الشاي ؟ أشار أحدهم إلى الظلام المحيط وقال لي :

-قريب منك.. ستمر عليها..

تذكرت أني صائم.. وقد أمسكت.. وصليت الفجر هناك في مدينة شقرة.

انطلقت من جديد مبالغاً في السرعة.. فالسرعة تحلو في طريق ايتها بلوغ الغاية وتحقيق الأمنية.. وكلما بدا نور الصباح حولي أجلي عن الطريق كابوس الظلام.. وما بزغت شمس الصباح خلف كثبان الرمل الممتدة على مدى الأبصار حتى كنت قد بلغت اية الطريق المرصوف.. وانزلقت

العجلات إلى طريق ترابي وعر.. أشاع في نفسي التذمر بادئ الأمر.. حيث اعتدت الانسياب على طريق الحضارة المركب.. ولابد من الاستعداد لخشونة الطريق.. خففت سرعة الدراجة أكثر من ثلثي سرعتها على الطريق الأولى.. وشعرت بالبطء في الانطلاق الذي كنت أستعجل به الوصول.. وأطوي به مسافة القلب الولوع إلى منبت الجذور القريبة.

لقد كادت أضلاعي تتداخل في الميل الأول من هذه المساحة الترابية.. مدارج صغيرة ومتقاربة تتموج الإطارات عليها تموجاً مقلقاً يبلغ الألم إلى جوف الصدر.. ويقطع أحلام الاستدعاء الممتع في مخيلتي النشطة.. حتى صار التموج على المدراج مألوفاً وواقعاً وضرورة . فتكيفت عليه وأعدت خيوط الاسترسال على مؤشرات العطاء الذهني.. وكما يقولون : التعود على الألم يخفف من تأثيره.

ما هي قصة الاحتراق البركاني في هذه المساحة الصحراوية؟ حجارة سوداء محترقة.. وانعدام لأثر الحياة النباتية الكثيفة.. اللهم مالا يتلاءم مع خصوبة المنطقة وكثرة أمطارها.. إ ا صخور وحجارة تناثرت أو تجمعت بارزة أو مختفية تمتد على طول المساحة الصحراوية.. بدءا بالمساحات المتاخمة لجبال دثينة والعرقوب شمالاً وإلى ساحل البحر العربي جنوباً.. ومروراً بالحدود الفضلية والعولقية سابقاً إلى الصحاري الممتدة على أطراف القرى القريبة من العاصمة الريفية (أحور).. إن التاريخ ا هول عن هذه الاحتراقات القديمة ليظهر للعين أن هناك ستاراً من الغيب أحاط بمأساة الانفلاق الزلزالي في عصور عريقة في القدم.. دمرت الحياة في هذه المساحة ا لّلة بالسواد.

هناك على الحدود الوهمية الفاصلة بين « العوالق والفضلي » يرى المسافر تلك الجبال الصغيرة التي أصبحت مشققة الجوانب

كأنما هي فطيرة محترقة قسمت وتحددت أجزاؤها.. ومنها «حيد يحيى» الجبل الذي كان واحداً فانشق على نصفيه وصار اسماً منافياً لواقعه وحاله وشكله.. صار رمزاً للدمار القديم والموت القريب.

دارت على صخوره السوداء وشقوقه العميقة معارك قبلية نتنة الدوافع.. جاهلية الأسباب.. ذهب ضحيتها رجال عديدون من وطن واحد وأمة واحدة.. كنا في صغرنا نسمع عن هذه المعارك فنتحمس ونتباهى.. ونرى سيارات السلطنة والحكومة المحلية تنقل الغذاء والسلاح والرجال إلى أرض المعركة.. فنصفق.. و لم تشجيعاً.. وجهلا بحقائق الأمور..

وإذا ما عادت السيارات تحمل القتلى والجرحى نرى الوجوه الحزينة المتألمة.. ونرى الغضب الهادر في وجوه الجنود والبدو.. ونسمع أصوات النساء بالصياح حتى ليكاد أن يفلق القلوب.

ويتحلق البدو بجوار المساجد لدفن القتلى.. ونسمع الأخبار عن المعركة.. وعن البطولات.. والأمجاد.. والشهداء.. وتمر الأيام بطيئة لترى الناس وتسمعهم يتحدثون عن الانكسار.. إ ا كلمة تحمل مدلولات مختلفة ومتباينة.. ولكنها في المفهوم القبلي مضارعة لمعنى الغنيمة في الحرب.. تـ ـنـ ـزل في الأسواق بضائع من كل لون وحجم.. وتباع بأسعار زهيدة.. ويتوافد الناس بين متفرج ومشتري ومنتقد..

- هذا حرام.. مال مسلمين!..

ويرد الآخر :

-هذا مال غير حرام.. مال مرمي على البحر.. نتركه للمراقشة يأخذونه ؟ مال ما وقع لنا إلا بالبندق والجنبية..

والبندق والجنبية في شريعة القبلية وسيلة لاستحلال الأموال.. كم من مرة أتذكر المعارك الدامية على أطراف الساحل القريب من « حيد يحيى » .

وأتذكر الدفاتر والكرات الصغيرة والألعاب وعدداً من الدراجات النارية جيء ا من ساحل البحر بعد أن تحطمت سفن تجارية كانت في طريقها إلى حضرموت أو الخليج.

إن البدو المحليين يعتقدون أن كل ما لفظه البحر فهو حلال الامتلاك ولو كان صاحبه موجوداً بجواره.. كان أبي يتحدث في يوم الجمعة بعد الصلاة مع المصلين موضحاً لهم حرمة مال المسلم على أية صورة كان.. وأن الشرع الشريف لم يحل من البحر إلا السمك.. فيستمعون إليه في خشوع.. ثم لا يلبث الكثير من البدو وغيرهم أن يحملوا بنادقهم في آخر النهار على طريق المعارك القبلية الثائرة.

أتذكر الطائرات البريطانية المقاتلة تمسح المنطقة على ارتفاع منخفض بعد أن دأ المعارك ويدفن القتلى.. ودويها يكاد يصم الآذان ويخلع القلوب.

ويقال أن الفريقين يستمدان السلاح والعتاد من جديد من

الحكومة البريطانية بعد تمام المعركة الفاصلة.

✈

ها هي أحور.. تتراءى في أفق العين على الامتداد البصري.. ودقيق الرمال تتناثر تحت العجلات من بين صخور القشعة.. هذه القشعة كما يسمو ا.. اية الامتداد الصخري ا لمل بالسواد.. سأهبط إلى الصحراء الرملية الكثيفة المترامية.. بريد الوصول إلى الأراضي الزراعية تربة الريف الغنية.. لابد أن أتخذ لدراجتي طريقاً أكثر صلابة فبحار الرمل الساكنة قد تعجز القوة النارية عن الاستمرار.. الرمل الساكن.. أخطبوط الصحراء.

لقد عانيت الكثير من الإرهاق.. ومع الحذر والحيطة والتيقظ فقد وقعت في أذرعة الأخطبوط الرملي ثلاث مرات.. لعل الرمال في هذا الموسم الصيفي كثيفة أكثر منها في غيره.. إنه موسم الرياح السنوسة خلال الشهور الثلاثة.. رياح موسمية شديدة ب على طريق طويل منطلق من القارة

الإفريقية ماراً بالبحر الأحمر ومصطدماً بجبال عسير واليمن.. وحائراً دائراً على بعض مناطق الجنوب في خطوط رئيسية وفرعية تتلقى جزءاً كبيراً منه هذه المدن والقرى الساحلية وشبهها.. تثير الأتربةَ والزوابع.. وتحجب الرؤية عن الإبصار.. وتحمل في كل رحلة معها مئات الأطنان من الرمال.. توزعها على طريقها كثباناً رملية ساكنة ومتحركة ومرتفعة ومنخفضة.. تقذع العيون بذرات الرمال الساخنة.. ويمتزج سيلها المتدفق بالماء والغذاء.. و يمن على المساكن كبيرة وصغيرة.. جديدة وقديمة.. تعصف بالزروع والثمار.. تعبث بكل شيء في طريقها.

تستيقظ مدينة أحور خلال موسمها على أزيزها.. وتغرب الشمس مصفرة مكدودة.. والناس يرون الأرض غير الأرض.. والعيون غير العيون.. وكما يقولون.. «التعود على الألم يخفف من حجم تأثيره»..

يبدو بين الكثبان الرملية الممتدة ((حصن محمد)).. الرمز الجميل لكل مسافر يقدم إلى هذه الرقعة الزراعية.. حصن بناه أحد البدو المحليين ليكون أمناً له ولأهله وأغنامه وطعامه من غارات البدو المفاجئة.. ولكنه اليوم أصبح علماً يؤنس المسافرين إذا قيل لهم : هذا هو ((حصن محمد)).. فهو علامة الوصول.. وأول مدارج الدخول إلى الحياة البشرية المتمركزة في الأرجاء الزراعية المتفرقة.

هناك إلى الجنوب الشرقي القرية الزراعية ((حناذ)) قرية الخضرة والماء.. منتزه الراغبين.. آبارها.. مزارعها.. بيو ا.. أهلها..

وعلى الجهة الشمالية تمتد الطريق إلى الرواد.. القرية البدوية حيث البساطة والعزة والأغنام والأبقار ورائحة البادية.. وتنتشر القرى والخيم والعرائش البدوية.. من هنا إليها.. ومنها إلى تخوم الجبال القريبة: الشواق.. الرويس.. الجحر..

مساكين هؤلاء البدو.. حيا م صعبة مضنية.. ولكنهم ا مسرورون.

هاهي الأغنام قد انطلقت ا الراعية وخلفها كلبها.. وهناك عدة فتيات من البدو يحملن قرب الماء.. وتلك أخرى تسوق الأبقار.. ورجل بدوي يركب ظهر بعيره متجهاً إلى المدينة.. ورجلان في جهة أخرى يحملان حزماً من القصب اليابس.

وهذه بيوت صغيرة بنيت من الطين تخفي قصة الصراع بين التحضر والبادية.

نحن في المدينة نشعر بالظلم عند انقطاع التيار الكهربائي والضخ المائي.. أو عندما لا نجد السمك في الأسواق.. أو كلما أُعلن عن نقص بعض التموينات الغذائية.. نشعر بالتبرم والضيق.. ونقيم الأرض ونقعدها.. ونصب اللوم على النظام والسياسة.. والأشكال.. والدمى.. إذن أين راحة هؤلاء مقارنة بما نحن فيه ؟ لولا أ م ألفوا هذه الحياة التعيسة وانقلب

م سخطهم إلى رضا لأ م لم تنفتح أعينهم على ما انفتحت عليه عيون أخرى.

بونٌ شاسع بين تفكيري وتفكير هؤلاء البدو.. أنا أحمل الأمور البديهية أكثر مما يجب.. تحليلاً وتعليلاً وتأملا واستنتاجا وتوقعاً.

أما هم.. فلا يملكون شيئاً من هذا التعقيد الذهني.. هم أقصر نظراً وأسعد حالاً.. وأقرب صدقا.. وأكثر عملاً.. يا للعجب.. مفارقات غريبة.. قالت لي نفسي : ((ما أنت في هذا الأسى والحزن على هؤلاء البادية إلا مثل غيرك ممن غذوا بالنعيم.. وازدحمت الطموحات في قلو م.. يمرون على الفقراء فينكسرون لحالهم مدة رؤيتهم للرموز والآثار.. ثم ينغمسون في حيا م الدنيا ولا يلتفتون إلى أمر أولئك غير تسجيل الذكريات)).. أف.. وما عساني أن أصنع لو فكرت بمساعد م ؟ لست أدري.. أنا في حيرة من الأمر.. أأقول لهم:

انطلقوا معي إلى المدينة؟.. أم أقول لهم : أنا أرغب في تحسين حياة الريف!.. لاشك أ م يفهمون ويتفهمون.. وكثير منا مثلنا يتوهمون.. ولكنهم في غالب الأمر أكثر اقتناعاً بحالهم وحيا م.. أكثر من اقتناعي بما أنا فيه.

يا للضيافة!! هذه بوادر الريح قد تحركت مع دخولي إلى دائرة المدينة.. ستزعجني حقا.. وستبدد كل أحلامي.. وفرحي وترقبي وانشراحي بالوصول.. إن الرياح في هذه البلاد مشهودة ومعهودة.. ليتها تؤجل الهبوب احتراماً لضيف البلاد القادم.

إ ا لا ب من بطن بلادك حتى تبادلك الحب والحنان.. إ ا قادمة على ذات الطريق.. ومغادرة على مثلها.. وكلاكما مسافر ومأمور.

إذن فلتهب الرياح.. فلربما ساعدتني على التخفي عند

الدخول.. أنا لا أحب أن أظهر.. هذه ملابس السفر لا تليق في هذه البلاد.. لابد أن ألبس ما يناسبني هنا.. إ ا مسقط رأسي ومنبت أسناني وفتق لهاتي.. ومعشب روضي.. مدينة التفاؤل والتشاؤم.. مدينة التفرق ا موع.. تلك مدينة الحصن.. وخلفي قرية ((امبسطي)) ذات العذوبة المائية.. والخصوبة الأرضية.. والبداءة البشرية.. وأمامي تجتمع المدينة المتفرقة على الروابي وحواف الأودية.. السوق.. وحافة السادة.. أو كما كانت تسمى في التاريخ العريق ((الرملية)).. وحافة ا با.. وكدمة آل فريد.. والمسعد.. وجول الحدد.. وأخيراً : جول مهدي.. لاشك أن الأهالي نائمون.. كل شيء يبدو ساكناً الريح وحدها هي التي تتحرك.. وأنا.. ولا حتى أنا.. فأنا ساكن كل السكون.. ولكن دراجتي هي التي تتحرك.

ها أنذا أمر بجوار البئر المعروفة ((بئر عائشة)).. لست أعلم

لمن هي ومن بناها.. غريب هذا الصمت المطبق على المدينة.. لقد تذكرت أن عادة الناس في شهر رمضان أن يناموا في مثل هذا الوقت.. لكنها الساعة الثامنة تقريباً.. هذا هو م لنا.. الأشجار حوله تبدو مسرورة بقدومي.. ها هي تتحرك يمينا وشمالا كأ ا تحييني.. فقد أطلت الغيبة عنها كثيراً.

صوت الدراجة يصنع الصدى في الجدران.. هذا علي ابن أخي يشرف من النافذة.. وأحاط الأطفال بالدراجة إحاطة السوار بالمعصم.. العيون الريفية حدقا ا تبدو متسعة أكثر من العين المتمدنة.. إ م يتكلمون ولا ينطقون..

-افتح يا علي.. هذا الكيس فيه نعنع.. قسمه على الأولاد..

-نعنع !..

سمعتها أكثر من عشر مرات تتردد على ألسنة ناطقة وصامتة.. ومعها سيل من اللعاب.. وخطوت إلى الم ل أحدق

في موجوداته وسكانه.. وهناك في غرفة الأخ الأكبر كان المستقر والحوار.. والأمل واللقاء.. والشعور بالانشراح.